الثقافة الإسلامية

١ — مصادرها

لمناسبة اهتمام معالي وزير المعارف
بأمر الثقافة الاسلامية ... ...

للأستاذ ابراهيم جمعة

تقافة العرب الجاهليين — العرب يستقبلون الاسلام أبعد ما يكونون عن علم أو فلسفة — أثر اليهود والنصارى فيهم — أثر النساطرة من أتباع الكنيسة الشرقية — تفضل الأسكندرية على الثقافة الاسلامية — مراكز العلم فى حران ونصيبين وجنديسابور — مهمة النساطرة والسريان فى النقل عن الأسكندرية إلى الشرق الأدنى — إشتغال العرب بالعلم والفلسفة متأثرين بالنساطرة وبالصابئة فى حران — حركة النقل وما نقل العرب عن الأمم الأخرى

الثقافة الإسلامية كما يؤخذ من اسمها وليدة الإسلام ، فالإسلام ، هو العامل الوحيد فى نشوئها ، والعرب هم حملة لواء الاسلام فهم إذن الكواهل التى نهضت بهذه الثقافة وأقامت على الزمن بنيانها المكين . ولم يكن العرب ليؤدوا هذه الرسالة الكبيرة وهى رسالة علم جامع شامل ، لو لم يكن فى طبيعتهم لذلك استعداد وقبول

والعرب الجاهليون أميون ، أبعدتهم تضاعيف شبه الجزيرة العربية عن الأمم ذات الحضارة ، وعزلتهم عنها انعزالاً لم يخفف من حدته سوى خروج بعض الاعراب وبخاصة من قريش فى التجارة إلى الشام ومصر . وقد ذقت أخفاف الإبل على وجه شبه الجزيرة العربية طريقين هامين : الأول طريق حضرموت والبحرين والخليج الفارسى ، والثانى طريق اليمن والعسير ومكة والبطراء ، فإذا ما انتهت المتاجر إلى خليج فارس وتخوم الشام كان اختلاط بين العرب وسكان الحضر ، وكان تبادل فى التجارة ، وكان امتزاج فيه مصلحة مادية ، وفيه تبادل أفكار ، وفيه أخذ وعطاء فكريان إلى جانب الأخذ والعطاء المعروفين فى التجارة

وقد حل عرب الحجاز محل اليمنيين فى السيطرة على الحركة التجارية وعلى مسالك التجارة قبل انبثاق فجر الاسلام بقليل ، وكاد عرب الحيرة بسبب شدة ولائهم لفارس ، ورغبتهم فى تنحية ما عداهم من الاعراب عن خدمة الفرس يستأثرون بتجارة إيران . وظلت متاجر الهند والحبشة والبقاع الخصبة فى جنوب شبه الجزيرة العربية تنقل إلى تلك البلاد حتى جاء الاسلام فشغل العرب بالجهاد فى سبيله ، وانصرفوا إلى الفتح ، وما يصحبه من شواغل ، واستوطنوا أرضاً جديدة أو قل استوطن كثير منهم البلاد المفتوحة فوجدوا فيها غناء صرفهم عن الكدح فى سبيل العيش على النحو الذى عرفوه فى جاهليتهم ، وكفاهم سواد العراق أول الأمر مشقة السعى المضنى وراء الرزق فى هجير البادية — ثم استقبلتهم وديان الشام بما خصها الله من خير ، وانفتحت لهم أبواب مصر فأبدلتهم بقتاد الصحراء جنة فيحاء ، فكان استقرارهم وامتزاجهم بالعناصر الأجنبية سبباً فى التحضر وترك عيشة البداوة ، والاقتباس الذى زاد على الزمن وانفرجت دائرته ، فأحاطت بالشىء الكثير مما عرفت أمم إيران والجزيرة والشام ومصر من مظاهر التمدن . وعلى هذا كان اختلاط العرب بالأمم المجاورة قبل الاسلام بسبب التجارة وامتزاجها بها بعد الاسلام بسبب الفتوح أول خطوة فى سبيل تكون ثقافة جديدة لم يكن يعرفها العالم من قبل

هؤلاء العرب الذين شهدوا الحضر شهوداً موقوتاً وهم يقومون على أمر قوافل التجارة أو الذين نزلوه واستقر بهم المقام فيه جنوداً أو بطوناً مهاجرة لم يكن لهم من مظاهر الثقافة إلا ما كان للعرب الجاهليين عامة من لغة وشعر وقصص وأمثال . وينسب إليهم بعض المؤرخين دراية بالطب والتنجيم والانساب والأنواء . وليس من العدل فى شىء أن ننسب إلى جماعة هبط مستواهم الاجتماعى إلى مثل ما هبط مستوى عرب الجاهلية علماً منظماً . بل إن كل ما عرفه العرب من هذا القبيل معلومات تقوم على الخبرة التقليدية التى كثيراً ما تخطئ وقليلاً ما تصيب . يقول الأستاذ أحمد أمين فى كتابه فجر الاسلام : « ومن الخطأ أن تسمى هذه الأشياء علماً كما يفعل الألوسى وغيره فيقول — ومن علومهم علم الطب وعلم الأنواء وعلم السماء ، ثم يشيدون بذكر ذلك حتى يوهموك أنه كان عندهم علم منظم بأصول وقواعد ، فإن ما كان عندهم من هذا القبيل لا يتعدى معلومات أولية وملاحظات بسيطة لا يصح أن تسمى علماً ولا شبه علم »

وقد جهل العرب الجاهليون الفلسفة جهلا تاماً وكل ماعرف عنهم خطرات فلسفية يقول عنها الأستاذ أحمد أمين أيضاً :

« ... هناك فرق كبير بين مذهب فلسفي وخطرة فلسفية ؛ فالمذهب الفلسفي نتيجة البحث المنظم ، وهو يتطلب توضيحاً للرأي ، وبرهنة عليه ، ونقضاً للمخالفين وهكذا ... وهذه منزلة لم يصل إليها العرب في الجاهلية . أما الخطرة الفلسفية فدون ذلك لأنها لا تتطلب إلا التفات الذهن إلى معنى يتعلق بأصول الكون من غير بحث منظم وتدليل وتفنيد، وهذه الدرجة وصل إليها العرب »

إذن استقبل العرب الاسلام وهم خلو من كل علم صحيح أو فلسفة حقة . ويجدر بنا قبل أن نتعرض إلى الموارد التي تطرق إليها العرب ونهلوا منها علماً وفلسفة خارج ديارهم — أن نذكر شيئاً عن أثر الديانتين اليهودية والنصرانية . أما اليهود فالمعروف أنه كانت لهم جاليات في يثرب وتيماء وفدك وخيبر ووادي القرى . وللثقافة اليهودية ناحيتان: الأولى مادية، فقد نشروا بين الأعراب معرفة بضاعة المعادن ولا سيما الأسلحة ، كما عرفوا الزراعة . والأخرى معنوية، فقد بثوا بين الأعراب كثيراً من تعاليم التوراة قبل الاسلام ، فعرف هؤلاء شيئاً عن البعث والحساب والعقاب ، وظل تأثير اليهود باقياً على شكل أساطير وخرافات ، ومن ذلك ما بثه في الاسلام كبار من أسلموا من اليهود مثل كعب الأحبار الذي نقل إلى الاسلام فكرة « تحريم التصوير » وهو في ذلك ناقل عن تعاليم اليهود ومتأثر بطبيعة الجنس اليهودي ، تلك الطبيعة التي تكره التصوير لأنها تعجز عنه وتقصر دونه

ومن أهم المصادر الثقافية التي أخذ عنها العرب أيضاً المسيحيون في شبه الجزيرة قساوستهم ورهبانهم ومنهم الشعراء والبلغاء أمثال أمية بن أبي الصلت وقس بن ساعدة

واليهود والمسيحيون متأثرون بالثقافة اليونانية التي ازدهرت على شواطئ البحر الأبيض المتوسط وغزت بلاد الشرق الأدنى وامتزجت بنفوس سكانه ، واتخذت لها مواطن تركزت فيها أشهرها حران وأنطاكية والاسكندرية ؛ فكان شيئاً من الثقافة اليونانية كان قد وصل العرب عن طريق انتشار اليهودية والمسيحية في بلاد شبه الجزيرة قبل الاسلام ، ولكن الأثر البالغ لهذه الثقافة الاغريقية وصل إلى العرب عند ما انطلقوا من عقالهم والتقوا خارج بلادهم بممثلي هذه الثقافة في مراكزها أو بعبارة أخرى في البؤرات التي تركزت فيها

وأشهر الأوساط الثقافية التي كان لها على العرب فضل لا يعدله فضل «الاسكندرية» مدينتنا العظيمة، ففيها اختلط ما كان للاغريق من علم وفلسفة ، وهناك امتزجت الفلسفة بالدين امتزاجاً جعل منها ضرباً من ضروب التصوف الفلسفي . ولا غرابة في ذلك فقد كان معظم المشتغلين بالعلم في العصور الوسطى من رجال الدين وقد لجأ هؤلاء إلى الفلسفة والمنطق يؤيدون بهما تعاليم المسيحية

واشتهر النساطرة واليعاقبة من أتباع الكنيسة الشرقية باحتفاظهما بعلوم الأقدمين وفلسفتهم ، وهم في واقع الأمر حلقة الاتصال بين التراث العلمي اليوناني وبين العرب . وكان النساطرة مترجمين لكثير من كتب الفلسفة واللاهوت عن اليونانية إلى اللغة السريانية كما حذقوا الطب والكيمياء وعرفوا بهما في فارس وفي البلاط العباسي . والعلاقة وثيقة — كما يقول الأستاذ الدكتور بطار في كتابه (فتح العرب لمصر) — بين لغة السريان وبين العلم . والظاهر أنه كان لا بد لكل من يريد أن يحذق علوم الأقدمين من الالمام باللغة السريانية أولا ، وأن يتتلمذ على أساتذة من النساطرة ثانياً

ويهمنا بنوع خاص كمصريين أن نتعرف مقدار ما أفاد العرب من علوم الاسكندرية . والمؤرخون العرب والسوريون يعتبرون الكاتب والمؤرخ « حنا الأجروي » أصدق ممثل للحركة العلمية الاسكندرية وآخر رجالها، وإليه وإلى الفيلسوف السفسطائي « اصطفان الاسكندري » وإلى اصطفان الأثيني وهو طبيب مؤلف ومعلق على بعض تصانيف « جالين » الطبيب الأسكندري يرجع الفضل فيما نقل العرب من علوم الأسكندريين

وحنين بن إسحق من أكبر الناقلين لعلوم الأسكندرية يذكر لمناسبة نقله لمقالات جالينوس إلى السريانية والعربية أنه قبل الفتح العربي بقليل تضافرت جهود أطباء الأسكندرية على جمع سبعة من مصنفات جالينوس الطبية ، أصبحت أساساً للدراسات الطبية في وقت كاد لواء العلم فيه يسقط أو قل سقط بالفعل في مدينة الأسكندرية ، اللهم إلا إذا اعتبرنا تلك الاجتماعات التي كانت تعقد ليتذاكر فيها المجتمعون من محبي العلم عامة والطب

خاصة بعضاً مما وضع جالينوس، أو ليقوموا بنقلها إلى لغة أخرى من غير كبير تقيد بتعاليم جالينوس نفسه

وممن يذكر المؤرخون العرب أنهم اشتركوا فى هذا العمل الطبى الكبير فى أخريات أيام العلم الاسكندرى : حنا فليوتس واسطفان الاسكندرى وجسيوس وبلاديوس ومارينوس ، الذين علقوا على مؤلفات أبقراط وجالين

ربما شهد العرب في الاسكندرية مدرسة فلسفية مسيحية أعقبت المدرسة « الأفلاطونية الحديثة » التى كان يتزعمها « الشيخ اليونانى » أفلوطين الاسكندرى كما يصفه الشهرستاني

ومن أشهر فلاسفة هذه المدرسة الفلسفية المسيحية الفيلسوف المسيحى السريانى « حنا الأفاى » نسبة إلى أفامية إحدى مدن سوريا الشمالية ، والطبيب « سرجيوس الرسعنى » المعروف باسم تيودوسيوليس الذى نقل عدداً لا بأس به من مقالات جالينوس إلى اللغة السريانية . وقد أنتجت هذه المدرسة نفسها الطبيبين المصنفين « بولس الأجانيطى » و « أهرون » وقد أثر عن هذا الأخير كتابه « الفتاوى الطبية » الذى نقل من السريانية إلى العربية وكان له أثره المحسوس فى الطب الاسلامى فى أوائل عهد العرب بالاشتغال بالعلوم الطبية

ومن الطريف أن نعرف كما يقول الأستاذ الدكتور ماكس مايرهوف أن الحجة الذى يحدثنا عن مدرسة الاسكندرية فى عصر من عصور اضطراب الاسكندرية وركود حركتها العلمية إنما هو « الفارابي » الفيلسوف العربى الذى عاش فى القرن العاشر الميلادى، يقول فى كتابه عند ذكر الفلسفة اليونانية وهو كتاب مفقود الآن إلا فقرات منه وعاها كتاب « عيون الأنباء » لابن أبى أصيبعة تفيد أن امبراطور المسيحيين كان يتدخل فى حرية البحث والدراسة ويقصر ما يدرس من علم المنطق فى كتب أرسطو على نقط لا تتعدى باب « الأشكال الوجودية » وكان يحرم دراسة ما عدا ذلك لتعارضه مع التعاليم الدينية المسيحية . ولا يهمنا ذلك إلا للدلالة على أن الاسكندرية لم تصبح قبيل الفتح الإسلامى وسطاً صالحاً للدراسة الحرة كما كانت من قبل ، بل أصبحت الحركة العلمية فيها وقفاً على رجال الدين؛ ولم يكن من خير العلم أن يتناوله رجال الدين ؛ فيخضعونه للدين وسلطانه

ويذكر الفارابى أيضاً أن أستاذه المسيحى « يوحنا بن حيلان » رفض أن يعلمه فصولاً بذاتها من علم المنطق لأرسطو كان محظوراً على فلاسفة الاسكندرية فى ختام القرن التاسع الميلادى تعليمها إلا حين أبيح ذلك فى وقت ما للمسلمين دون سواهم

ولا يعزب عن البال أن الحركة العلمية وإن تكن قد فقدت فى الاسكندرية مرتعها الخصب فقد وجدت فى النسطورية المنتشرة فى الشرق الأدنى وتطرقها إلى جوف الامبراطورية الساسانية ما أيقظ فى الناس هناك رغبة صادقة فى العلم فى شكله الهلينى السريانى

ويعرف التاريخ أن الامبراطور (زينو) كان قد أمر بتحطيم مدرسة علمية نسطورية عام ٤٨٩ م كانت مزدهرة فى « أودسا » فأعقبها على الأثر مدرسة قامت فى « نصيبين » ببلاد الفرس . ونرى أنه قامت بجند يسابور باقليم خوزستان بفارس أيضاً مدرسة طبية ذات بال ظلت حتى القرن التاسع الميلادي ، وفيها تخرج كثير من الأطباء الذين خدموا بلاط الخليفة العباسي ببغداد وجلهم من المسيحيين . ويهمنا ذلك للدلالة على أن النساطرة كانوا على أقل تقدير منذ القرن الخامس الميلادى يشتغلون بالعلم وبالطب خاصة فى أودسا ونصيبين وجنديسابور من أعمال فارس، فلم يكن غريباً أن يكونوا حلقة الاتصال بين علم الاسكندرية والعرب فيكون منهم نقلة هذا العلم والحفظة عليه فى عصر عصفت فيه أنواء الاضطراب فهددت الثروة العلمية الهلينية بالزوال

ويحدثنا الأستاذ ماكس مايرهوف عن وثائق قيمة يتضمنها كتاب تاريخ الحكماء لابن أبى أصيبعة وأصلها عن كتاب لأبى نصر محمد الفارابى مفقود يتضمن « أنه بعد خضوع الاسكندرية للاسلام انتقل مركز الثقافة منها إلى « انطاكية » وهناك استقر طويلا حتى قضى معظم أساتذة العلم نحبهم غير رجلين هجرا انطاكية يحملان ما اقتنيا من كتب، أحدهما من « حران » فى أعالى أرض الجزيرة، والثانى من «مرو» فى بلاد العجم . وكان من تلاميذ « المروزي» هذا ابراهيم المروزى ويوحنا بن حيلان. أما تلاميذ « الحرانى » فكان منهم القس « إسرائيل » و « الكورى » وهذا الاسم الأخير تحريف للاسم السريانى كيوريه أو قيرس

وقد أفادت بغداد من علم الكورى والقس إسرائيل ويوحنا بن حيلان ما أفادت وانتفع بلاط العباسيين بطب هؤلاء، وأخذت عن هذا وذاك الثقافة الإسلامية ما أخذت عن طب القدماء وفلسفتهم .

وكان انتقال مركز العلم من الاسكندرية مستقر العلم الهليني اليوناني إلى أنطاكية فى خلافة عمر بن عبدالعزيز ومن أنطاكية إلى حران فى خلافة المتوكل العباسى . وانتهى العلم فى زمن المعتضد إلى عالمين هما « الكوبري » و « يوحنا بن حيلان » الذى مات ببغداد فى خلافة المقتدر ، وعن هؤلاء انتقل إلى « ابراهيم المروزى » و « محمد بن كرنيب » وأبى بشر متى بن يونس وهما تلميذان لابراهيم المروزي . وينسب إلي متى هذا أنه علق على كتب أرسطو فى علم المنطق . وبوفاة متى هذا ببغداد فى خلافة « الراضى » انتقلت الفلسفة العربية إلى أبي نصر محمد بن محمد الفارابى أحد تلاميذ حنا بن حيلان وهو أشهر من يرجع إليهم فى المسائل الفلسفية من العرب والذي لم يكن ينافسه غير مسيحى واحد هو « أبو زكريا يحيى بن عدى »

ولقد سبق أن عرفنا أن دراسة الفلسفة اليونانية على الشكل الذى انتهت إليه فى الاسكندرية هاجرت إلى « حران » مغادرة أنطاكية ؛ وغدت حران بذلك وسطا لدراسة الفلسفة اليونانية ، وعلم النجوم كما عرفه اليونانيون ولاسيما وقد صادفت هذه الناحية من نواحى الدراسة فى حران فئة « الصابئة » من عبدة النجوم فوجدوا فيها مرتعاً ووجدت فيهم تلاميذ مخلصين . وهنا فى حران نشأ بعض أعاظم فلكيي العرب أمثال « ثابت بن قرة » والبتانى وغيرهما

وقد تجلت العقلية العربية الهاضمة بكل مزاياها ومميزاتها فى حركة النقل الكبرى فى عصر المأمون فترجمت إلى العربية أشهر الكتب فى كل ناحية من نواحى الثقافة . ويمكننا أن نعتبر هذه الثروة الفكرية الهائلة التى نجمت عن هذه الحركة أساس الثقافة الاسلامية كلها ، وهى ثقافة متشعبة الأصول واسعة الأطراف يحتاج الالمام بفكرة إجمالية عنها إلى مقال خاص

ولا غنى لطالب الثقافة الاسلامية عن الالمام بالنواحى المختلفة التى شملتها هذه الثقافة وبعضها فكرى بحت والبعض مادى له اتصال وثيق بالحضارة . وهذا الجانب المادى فى اعتبارنا هو الطابع الجديد الذى طبعه العرب على وجه العالم منذ القرن السابع الميلادى حتى العصر الذى فشت فيه المدنية الأوربية بما استصحبت من ذوق جديد شغف العالم به فكان قاضياً على كثير من نواحى الحضارة الاسلامية، فحبب الايرانيين وشغفهم بتقليد الأوربيين فى زمن الدولة الصفوية فى القرن السادس عشر طبع التصوير الفارسى وهو مظهر من مظاهر الحضارة الاسلامية بطابع أوربى أفقده مميزاته الأساسية التى هى سر جماله وسحره ، وانتشار الطراز الأوربى فى البناء قضى فى مصر مثلاً على الطراز التركى العثمانى وهو آخر مدرسة من مدارس العمارة الاسلامية

ولعل هذه العناية التى بدت من جانب وزارة المعارف لاحياء الثقافة الاسلامية لا تكون قاصرة على إحياء الجانب الفكرى منها ، بل لعلها تتناول الجانب المادى أيضاً فيعود إلى الحياة طراز إسلامى فى البناء تتسم به مصر الاسلامية وينبعث منها إلى البلاد الاسلامية المجاورة ، وتعنى مصانع النسج باخراج أقمشة ذات أنماط فارسية بارعة الجمال كالتى عرفناها فى دراساتنا . وتتمتع بلادنا بمركزها الجغرافى بمكانة طالما أدت بها أجل الخدمات كوسيط بين الشرق والغرب . وقد أغرم الغرب يوماً ما بفنون الشرق وحضارته وكان ناقلاً عنه باعجاب شديد. ويبى تاريخ الفنون كثيراً من المعلومات عما كان بالبندقية فى القرن السادس عشر من مدارس فنية مهمتها تقليد التحف النحاسية الشرقية والخزف الشرقى وما كان لصقلية من (طراز) أو مصانع النسج التى كانت تخرج منتجاتها محاكية الأنماط المصرية والفارسية محاكاة تدعو إلى كثير من الاغتباط والاعجاب

ولنا فى موضوع الثقافة الاسلامية جولات مستقبلة إن شاء الله نتناول فى إيجاز حركة النقل ونشوء المدارس والجمعيات العلمية الاسلامية فى مقالنا التالى

(دار الآثار العربية)

ابراهيم مدكور
خريج معهد الدراسات العليا للآثار
الاسلامية بدرجة الشرف

تحت الطبع :

حيـــاة الرافعى

للأستاذ محمد سعيد العريان

الاشتراك فيه قبل الطبع ١٠ قروش تدفع إلى إدارة الرسالة

ثمن الكتاب بعد الطبع ١٥ قرشاً